بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

«إننى لا أستطيع إلا أن أقرر ـ بصفتى طبيبًا ـ أن الإنسانية غارقة فى أزمة رهيبة».

(فريدريش ديرنمات NZZ ـ ٦/ ٤/ ١٩٩٠).

لقد تمكنت الألفية الجديدة منا. فبعد الاحتفالات والغبطة وكل ما صاحب قدوم الألفية من إثارة، وجدنا أنفسنا نواجه حياتنا اليومية المعتادة فى اليوم الأول من يناير عام ٢٠٠٠. ألم يحدث أى شىء؟ هل كانت مشكلة الصفرين فى الحاسبات الآلية هى مشكلتنا الوحيدة؟ ألا تعانى جميع الأنظمة المسيطرة على حياتنا ومجتمعاتنا من الأزمات؟.

لم يكن العالم يفتقر إلى مؤشرات على الأزمة التى تعانى منها مجتمعاته كافة ونحن على أعتاب ألفية جديدة، هذه المؤشرات التى ساهمت وسائل الإعلام المختلفة فى تأكيدها وتضخيمها حتى أصبحت بمثابة رعب هستيرى من نهاية العالم وفناء الإنسان، وتخَوُّف من الألفية الجديدة، وتأهب لما ستأتى به هذه الألفية من شرور.

ولكن سبقت هذه المخاوف بسنوات طويلة حالة غريبة انتابت المجتمعات الغربية، هى حالة اللامبالاة حيال الكوارث المتوقعة، هذه الحالة من اللامبالاة ترجع إلى شعور بالإحباط والانهزامية وليس بالتفاؤل.

لقد استبدل العالم حالة جديدة من الاسترخاء بحالة من الذعر غير المعقولة من نهاية العالم المرتقبة ـ والتى كانت حتى وقت قريب ينفرد بالتحذير منها أصحاب الثقافة الخضراء، أى أنصار البيئة.

فمن ذا الذى انتابته مخاوف ليلة رأس السنَّة لعام ٢٠٠٠ مثل: احتمال اشتعال حرب نووية، والتدمير الهائل للغابات وموت الكثير من أشجارها، وثقب الأوزون وتأثيره على التغيرات

المناخية، وتكرار مأساة تشيرنوبل، وزيادة درجة حرارة الأرض، والإنسان الزجاجي، وأمراض مثل الإيدز وجنون البقر، واشتراك قوات الدفاع الاتحادية فى معارك حربية؟.

لقد واكب خفوت رومانسية أنصار البيئة تضاؤل المخاوف على هذه البيئة وخمول سياسى: لقد أصبح المأزق الاقتصادى والاجتماعى والأخلاقى ـ هذا إن تبين الأخير ـ كيف نغير الأمر فى ألمانيا؟ إنها أزمة مريحة تتناسب مع استرخاء تناول البيرة والخمور.

لم يحتفل المسلمون بالألفية الجديدة بتناول الخمور، إنما بهدوء أكبر مما حدث فى الغرب. فلقد صادف قدوم الألفية الثالثة وسط العام ١٤٢٠ للتقويم الهجرى. كما أن قليلاً من المسلمين يهتم بأسرار الأرقام. ولا يفترض أصلاً أن يكون لقدوم ألفية جديدة تأثير بالغ على المسلمين؛ حيث إن الساعة يمكن أن تقوم فى أى وقت، أى أن ينتهى العالم فى أى لحظة[١].

كما أن كتابة التاريخ الإسلامى تهتم بتسمية كل قرن باسم شخصية كان لها تأثيرها البالغ فى ذلك القرن بوصفه مجددًا. فأطلق اسم الفيلسوف أبى حامد الغزالى (توفى عام ٥٠٥ هـ ـ ١١١١ م) على القرن الخامس الهجرى، وحمل القرن الثامن اسم الفقيه ابن تيمية (توفى ٧٢٨ هـ ـ ١٣٢٨ م)، وسمى القرن الثانى عشر بقرن شاه ولى الله الدهلوى، المصلح الهندى (توفى ١١٧٦ هـ ـ ١٧٦٣ م)، وعُرف القرن الرابع عشر بقرن الشيخ محمد عبده المجدد المصرى (توفى ١٣٢٣ هـ ـ ١٩٠٥م).

لقد تقبل المتصوف الهندى أحمد سرهند (توفى ١٠٣٤هـ ـ ١٦٢٤م) سالك الطريقة النقشبندية، أن يحمل فى حياته اللقب الشرفى غير الرسمى «مجدد الألف الثانى»[٢].

لا يمكننا أن نستنتج مَن شخصية المجدد المرتقبة. لقد قال الرسول محمد ﷺ ـ وهو على يقين بأن المستقبل والغيب لا يعلمهما سوى الله ـ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرة على الحق لا يضرها من خالفها»[٣]. ولكن حذر محمد ﷺ أن كل جيل سيكون أقل تمسكًا بعقيدته من الجيل الذى سبقه: «لن يأتى زمان إلَّا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»[٤]. وسيكون من علامات الساعة: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا»[٥].

---

(١) القرآن الكريم: الآية ٦٣ من سورة الأحزاب، والآيات ٤٢-٤٦ من سورة النازعات.

(٢) لقد قام بدور الوسيط بين الفرق الصوفية المتطرفة وبين من يرفضونها على أساس المذهب الحنبلى.. انظر عبد الحق أنصارى، ونظرية الشيخ سرهند عن وحدة الشهود فى Islamic Studies 37/no. 2 Islamabad 1993.

(٣) مسلم فى (الإمارة: حديث ١٧١ / ١٩٢١).

(٤) البخارى فى (الفتن: حديث ٧٠٦٨).

(٥) البخارى فى (باب رفع العلم: حديث ٨٠).

لم يشهد الدين الإسلامى فترة ازدهار وذروة تحقيق ذاته بعد انقضاء فترة توهجه الأولى وبداياته تحت القيادة الكاريزمية لرسوله محمد ﷺ إلا مرات نادرة.

لم يشهد الإسلام تحولًا كاملًا له، وتحقيقًا لجوهره فى الحياة العملية بطريقة دائمة، لا فى عهد الأمويين الذين حكموا من دمشق حتى عام ٧٥٠، ولا فى ظل حكم العباسيين من بغداد، والذى امتد حتى منتصف القرن الثالث عشر رغم كل ما فيه من ازدهار ثقافى وحضارى، ولا حتى فى قمة ازدهار الحضارة الإسلامية بالأندلس قبل حلول عام ١٤٩٢. بالرغم من أن الإسپان لا يزالون إلى يومنا هذا يصيحون «الله»، عندما يقولون «أُليه ـ Olé».

ينطلق المسلمون اليوم من معرفة مفادها أن العلم والمعرفة لا ينبنيان فقط على أعمال السلف، ولكنهما يشهدان إضافة وتراكم، حتى إن بعض المسلمين يمكنهم ـ عن حق ـ أن يدَّعوا أن معرفتهم بتراث الإسلام وبالقرآن، تفوق معرفة أسلافهم[٦]، ولذلك فهم يتعلمون بكل جدية، خصوصًا أن القرآن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر حتى يصبحون خير أمة أخرجت للناس[٧]، وكذلك عندما يخاطبهم القرآن قائلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

لا نستطيع أن نقول بعد انقضاء احتفالية رأس السنة، أن مخاوف الجانبين ـ المسلم والغربى ـ كلٌ من الآخر قد تلاشت.

لا نستطيع أبدًا أن نتفق مع ما تنبأ به فرانسيس فوكوياما، بأن نهاية التاريخ تلوح من خلال سيادة الحضارة الغربية فى صورة سيطرة نظام حكمها الديمقراطى الليبرالى، وما يحمله من قيم على العالم كافة[٨].

لا نستطيع أن ننكر أن العولمة فى المجالات المختلفة الاقتصادية ـ التكنولوچية ـ الأيديولوچية ـ الثقافية، قد أخذت تنمو وتؤتى ثمارها فيما تستهدفه من تحويل العالم إلى «قرية صغيرة».

لكن فى الوقت نفسه، بدأت الشكوك تحوط الغرب فيما شعر به من زهو وانتصار بعد انهيار الشيوعية، فهل كان الغرب محقًا فى إحساسه بهذا الانتصار؟

---

(٦) خذ على سبيل المثال الآية الثانية من سورة العلق، فلم يكن أوائل المسلمين يعرفون معنى العلق كما يعرفه المعاصرون اليوم.

(٧) كما جاء فى الآية ١١٠ من سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

(٨) فوكوياما (١٩٩٠).

أو لم يتضح لكل ذى عينين أن القرن العشرين المنصرم، كان أكثر القرون دموية فى تاريخ البشرية، بكل ما شهده من حروب عالمية مدمرة وانتشار الأسلحة القادرة على إبادة الملايين من البشر، ومعسكرات الإبادة وعمليات التطهير العرقى وغيرها من مآسى البشرية؟ وكل هذا يشهده العالم بعد مرور ٢٥٠ عامًا على بداية عصر التنوير ومشروع الحداثة! وتتركز هذه الشرور الوحشية المهينة للبشرية فى أوروبا «المتحضرة» الشديدة الزهو والفخر بعقلانيتها وإنسانيتها[٩].

فهل تعانى المجتمعات الغربية من مرضٍ ما؟ أم يتهددها خطر السقوط الأخلاقى كما حدث للبولشفية من قبل؟.

لقد ثبت أن نظريات صمويل هنتنجتون بشأن صدام الحضارات، الذى لا مفر منه خاصة بين الغرب والإسلام بكافة «أبعاده الدموية»، ما هى إلا صيحة إنذار فى المقام الأول[١٠].

ومنذ ذلك الوقت، فإنك تستمع دائمًا إلى نغمة تشاؤم لا سبيل إلى تجاهلها عندما يتم استدعاء ذكرى حضارات العالم التى امتنعت عما يسمى بالـ Social Re - engineering، أى إعادة الهيكلة الاجتماعية والاقتصادية[١١].

لقد تكون فى الغرب شعور بضرورة وجود قطبين فى العالم، أى هنا وادى السيليكون... وهناك مكة[١٢] ـ كما لو أن العالم لم يتطور منذ أعلن «إرنست رينان» يوم ٢٣من فبراير عام ١٨٦٢ فى «الكوليج دى فرانس ـ Coliége de France»: «أن الإسلام هو النفى التام (النقيض) لأوروبا».

لن ينكر معاصر دارس للثقافات والسياسات، أن تطور عالمه ـ أيًا كان موقعه الجغرافى ـ فى القرن الحادى والعشرين سيتأثر ـ إن لم نقل سيكون محكومًا ـ بما سيشهده الإسلام وبما

---

(٩) لقد شهد القرن العشرون سقوط أكثر من خمسين مليون قتيل، وأضعاف ذلك من المصابين، مع تدمير مئات المدن وآلاف البلدان والقرى.

(١٠) هنتنجتون (١٩٩٣).

(١١) تعد تركيا أوضح الأمثلة. فلقد باءت محاولات أتاتورك ومن سار على نهجه فى تحويل تركيا ـ قسرًا ـ إلى قطعة من أوروبا بالفشل، نظرًا للجذور الثقافية والتاريخية الإسلامية الراسخة ـ فبالرغم من جميع محاولات التغريب، فإن الإسلام يؤدى اليوم دورًا أكبر مما كان يقوم به فى الثلاثينيات فى حياة مصطفى كمال.

(١٢) لا تزال النظرة المتشائمة لضرورة اختلاف الحضارات والثقافات بعضها عن بعض شائعة بين كثير من الدارسين والمهتمين بأفرع العلم المختلفة، ويؤدى هذا إلى مقولات مؤسفة وخاطئة، مثل الحكم العام بأن البلاد الإسلامية غير قادرة على ممارسة الديمقراطية لطبيعتها، كما لا يمكن لهذه المجتمعات أن تتحول إلى مجتمعات مدنية تحمى حقوق الإنسان بسبب بنيتها الثقافية، ويعد بسام طيبى (١٩٩٤) أحد ممثلى هذه المقولة المهينة للمسلمين.

سيؤثر فيه. هل سيقوم العالم الإسلامى بتحديث نفسه؟ هل سيمتثل هذا العالم لأسلوب الحياة الأمريكي أم سيستمر فى رفضه له؟ هل سيستمر انتشار الإسلام فى الغرب كما حدث فى الثلث الأخير من القرن العشرين؟ هل سيتم هذا بالوسائل السلمية؟.

ما النتائج المترتبة بالنسبة للغرب والمؤثرة فيه فى حالة فشل العالم الإسلامى فى القيام بعملية تجديد أخلاقى وإحياء لبنائه؟.

وما النتائج المرتقبة فى حالة نجاح العالم الإسلامى فى أن ينهض من جديد؟ وبالتالى يكتسب قوة جاذبة فى الغرب؟ هل يمكن أن يصبح هذا الدين ـ وهو نظرى وعملى ـ بالفعل دينًا يسود العالم؟.

هل يصبح الإسلام فى هذه الحالة العلاج والشفاء الذى سينقذ الغرب من نفسه؟ وهل سيصبح الغرب قادرًا على الاعتراف بالإسلام كدواء يصلح لشفائه، دواء يساعد الغرب على تخطى أزمته وإنقاذ حضارته؟.

هذه هى خلفية هذا الكتاب، وهذه هى الأسئلة التى يطرحها محاولًا الإجابة عنها.

***

يتضمن هذا الكتاب قائمة طويلة من المراجع، وستجد بها كثيرًا من الكتّاب الذين شاركوا فى المناقشات الدائرة حول الإسلام، خاصة فى العقود الثلاثة المنصرمة.

لم أستق هذه القائمة من الإنترنت، بل قرأتها كلمة كلمة، خلال عملى كناقد للكتب فى مجلة «عرض كتاب العالم الإسلامى ـ The Muslim World Book Review» الربع سنوية.

إننى أدين بالشكر لكتابين رئيسيين هما: «التناقضات الثقافية للرأسمالية ـ The Cultural Contradictions of Capitalism» لكاتبه «دانيال بيل»، شَخَّص فيه دانيال ـ أستاذ العلوم الاجتماعية بجامعة هارفارد ـ مساوئ الحضارة الغربية وآلياتها المدمرة.

أما الكتاب الثانى، فهو «صلاة الجنازة على روح السياسات الحديثة ـ Requiem For Modern Politics». وهذا الكتاب يعد دراسة تحليلية دقيقة لما تتضمنه المجتمعات الغربية من إمكانات رفض قاتلة، بسبب أيديولوچية التقدم والتطور التى تتبناها.

والآراء التى يتضمنها هذا الكتاب ليست نتاج قراءات بالمفهوم الضيق، ولكنها قامت على خبرات معيشية أكثر منها على قراءات نظرية.

ساعد على ذلك أننى، منذ اعتزالى عملى كدبلوماسى فى صيف عام ١٩٩٤، أتجول كمحاضر متنقلًا ـ دون فترات راحة تذكر ـ فى الغرب والشرق، من هلسنكى إلى كوالالمبور، من الرياض إلى لوس أنچلوس، ومن الخرطوم إلى ليبزج، حتى أساعد فى شرح كل جانب للجانب الآخر، ولكى أقيم جسورًا من التفاهم بين الغرب والشرق، ولأساهم فى إزالة مشاعر العداء التى يكنها كل طرف للطرف الآخر[١٣].

لقد ظهرت بعض هذه المحاضرات ونشرت فى مجلات متخصصة عن الإسلام فى ألمانيا وپاكستان والولايات المتحدة وبريطانيا.

وقد استخدمت مادة من هذه المحاضرات التى لم أنشرها من قبل بشكلها المكتمل.

تُعبر كثرة المراجع عن:

١- كثافة المناقشات الإسلامية حول الموضوعات الكبرى فى زماننا، مثل الديمقراطية، وحقوق الإنسان، ودور المرأة. وكيف أن هذه المناقشات تدور بلا أدنى وجود لمحرَّمات مسبقة.

٢- زيادة سطوة الموضوع حتى أصبح يفرض نفسه على الدراسات الاجتماعية.

٣- الدور الجديد الذى تؤديه اللغة الإنجليزية فى الحوار الإسلامى، فلقد أصبح للإسلام الآن لغتان رئيسيتان: فاللغة الإنجليزية ينشر بها الآن عن الإسلام أكثر مما ينشر بالعربية.

إننى أقتصد فى الإشارة إلى مقولات محددة، وأفضل ذكر أعمال بكاملها، حتى يكون الكتاب مستساغًا فى أثناء القراءة، ولا يتخذ شكلًا علميًّا بحتًا.

مراد هوفمان
إسطنبول
الأول من يناير عام ٢٠٠٠

(١٣) لقد قمت بإلقاء ١٣٩ محاضرة فى الفترة ما بين منتصف عام ١٩٩٤ ومنتصف عام ١٩٩٩، تدور كلها حول موضوعات إسلامية فى تسعة بلدان غربية وتسعة بلدان إسلامية، كما حضرت ٢٧ ندوة ومؤتمرًا كان الإسلام فيها الموضوع الرئيسى.

obeikandi.com